النفاق والمنافقين

الشيخ محمد محمود ندا

الخطبة الثالثة

الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، ولا عدوان إلا على الظالمين. وأشـــهد أن لا إله إلا الله وحده لا شـــريك له، له الملك وله الحمد، يحيي ويميت وهو على كل شـــيء قدير، وإليه المصير. وأشهد أن سيدنا وحبيبنا محمدًا رسول الله، الرحمة المهداة، والنعمة المسداة، والسراج المنير. اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه ومن دعا بدعوته إلى يوم الدين.

أما بـعـــــد

فهذه هي الخطبة الثالثة في النفاق والمنافقين، وقد عرفنا من صـــفات المنافقين أنهم يتملقون الأقوياء ويداهنون الوجهاء، وأن من صفاتهم الكذب والسفاهة والخداع. ويضيفون إلى ذلك اللؤم والتآمر في الظلام. يعيشـــون مع المؤمنين ويجالســـونهم ويتوددون إليهم باعتبار أنهم مؤمنون مثلهم، وفي ذات الوقت يجرون اتصـالات سـرية مع أعداء الله من اليهود والمشـركين. ويكشف القرآن الكريم عن هذه الخصلة فيهم فيقول: **(وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا، وإذا خلوا إلى شـياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مسـتهزئون ، الله يسـتهزئ بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون ، أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين).**

وهؤلاء المنافقون لابد أن ينكشف أمرهم في يوم من الأيام، فإذا انكشف أمرهم أسرعوا يحلفون الأيمان المغلظة بأنهم مؤمنون وفي صف المؤمنين، وأنهم أبعد ما يكونون عن التآمر في الظلام. ولكن القرآن يكشـف أيضًـا عن حقيقتهم فيقول: **(ويحلفون بالله إنهم لمنكم وما هم منكم ولكنهم قوم يفرقون)** – أي يجبنون ويخافون ويهلعون. عندهم خوف وجبن وهلع، وليس لديهم قوة.

لأن هؤلاء الناس يظنون أن اللؤم قوة، وأن الخداع مهارة وبراعة، ولكنه في الحقيقة لؤم وسفاهة ورذالة. لأن القوي لا يخادع، والمؤمن القوي لا يكون لئيماً ولا مخادعاً ولا محاولاً لأي نوع من التآمر ضـــد الآخرين. وما أكثر الذين يلعبون على الحبال المختلفة، حبل هذا وحبل هذا! أو ما أكثر الذين يحاولون دائمًا أن يمسكوا العصـا من وسطها. فإن كسب هؤلاء قالوا: إنا معكم، وإن ربح هؤلاء قالوا: إنا معكم.

هذا الموقف لا يليق بمؤمن أبدًا، لأن المؤمن صريح، صراحة الحق، لا يداهن ولا يلعب على حبال مختلفة، ولا يخادع هذا ولا يمكر بذاك. ومع ذلك، فإن بعض الناس قد ينخدع بمظاهرهم الخلابة، فلهم أجسام فارهة، ولهم وجوه وسيمة، ولهم ألسنة حلوة، فعندئذٍ ينخدع الناس بمثل تلك المظاهر الخلابة ويفتنون بها. **(وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم، وإن يقولوا تسمع لقولهم)**. ولكن القرآن يحذر النبي ويحذر المؤمنين في كل الأجيال من الانخداع بهذه المظاهر الفاتنة الخداعة فيقول: **(هم العدو فاحذرهم)**. ويقول مرة أخرى: **(فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم، إنما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا وفي الآخرة وتذهب أنفسهم وهم كافرون)**. إذن، هؤلاء الناس مآلهم الهلاك في النهاية، يوم يلتقي الجميع أمام أحكم الحاكمين الذي لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء.

كذلك، هؤلاء الناس، زيادة في خداع المؤمنين، يظهرون في صـفوف الصـلاة، يذهبون إلى المساجد ويتراصون في صفوف المصلين، وذلك لخداع الناس بهم. ولكن المتحقق والمتيقن منهم يرى فيهم علامات الكسل، وعلامات التباطؤ في أداء العبادات. لا يؤدونها بهمة ولا بنشاط. وإذا قاموا إلى الصلاة، قاموا كسالى، يراءون الناس، ولا يذكرون الله إلا قليلاً.

وليسـت الصـلاة فقط هي التي يتاجرون بها على الناس، وإنما جميع عباداتهم كذلك. فهم لا يعبدون الله في حقيقة الأمر. إذا صاموا أو زكوا أو صلوا أو أدوا أي عمل من أعمال العبادات، فإن عبادتهم لا قيمة لها عند الله. لماذا؟ لأنها لا تنبع من عقيدة صـادقة وإيمان راسـخ. وإنما هم ينظرون إلى العبادة على أنها نوع من الصفقات التجارية.

صفقة تجارية في سوق المنافع، فإذا جاء من وراء العبادة لهم خير استمروا عليها، وإن أصيبوا بنزلات أوأصيبوا بنكبات أو شئ من ذلك من الخسارات بعد أن عبدوا الله، فإنهم يتركون تلك العبادة وكأنها هي التي أودت بهم إلى هذا المصـــير. لذلك يقول الله تعالى: **(ومن الناس من يعبد الله على حرف، فإن أصابه خير اطمأن به، وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة، ذلك هو الخسران المبين)**. حتى نفهم الآية، نرجع إلى سبب نزولها. فقد روى البخاري عن ابن عباس رضـي الله عنه قال: (إن ناسًا كانوا يقدمون المدينة، أي يأتون مسلمين في ظاهر الأمر، الواحد من هؤلاء يأتي إلى المدينة فيســلم، فإذا ولدت امرأته غلامًا ونتجت خيله وربحت تجارته قال: هذا دين صـــالح. وإن لم تلد امرأته غلامًا ولم تنتج خيله ولم تربح تجارته قال: هذا دين سوء). وفي رواية أخرى قال: (كان بعض الناس يأتون النبي صلى الله عليه وسلم فيسلمون، فإن وجدوا عام خصب وغيث وولادة قالوا: هذا دين صالح، وإن وجدوا غير ذلك قالوا: هذا دين سوء). فأنزل الله تعالى: **(ومن الناس من يعبد الله على حرف)**.

التعبير القرآني تعبير دقيق في منتهى الدقة والبلاغة. إنه يشـبه هذا الإنســان الذي لا يعبد الله إلا من أجل المصالح الدنيوية وحدها، يشبهه بمن يجلس على حافة شيء أو على طرفه. إذن هو غير متمكن من جلسته، وهذا الذي لا يتمكن من جلسته فإنه يسقط عند أول هزة أو أول دفعة. بمجرد أي حركة من الحركات فإنه يسقط من هذا المكان بسرعة مذهلة. فهذا الإنسان فعلاً الذي يعبد الله على حرف، أي على طرف وجانب من الدين. إنه عندما تصـــيبه نكبة من النكبات أو تنزل به نازلة من النوازل، فإنه سـرعان ما يرتد على عقبيه تاركاً الدين وتاركاً العبادة. لأنه كما قلت، هو تاجر في سوق المنفعة. إنه ينظر إلى العبادة على أنها إذا وجد من وراءها خير، فمعنى أنها تدفع عنه الضــر أو تجلب النفع وتدر الضــرع وتنمي الزراعة وتربح التجارة، وكذلك تأتيه بالنكاح الطيب. فعندئذ يستمر في هذه العبادة. وإن وجد غير ذلك ارتد وترك العبادة كلها، فخسر دنياه وخسر آخرته، وذلك هو الخسران المبين.

إنه تاجر وليس عابدًا. إنه تاجر وليس عابدًا، لأن العابد هو الذي يعبد الله تعالى على اعتبار أنه أهلٌ لأن يُعبد. وما أكثر الذين يستغلون العبادات لمنافع دنيوية وحدها. وذلك مثل ذلك

الإنسان الذي يعيش على الرشوة، دائمًا ما من عمل يعمله إلا ويأخذ عليه رشوة من الناس، أو الذي يتاجر ويخسر الميزان ويغش في تجارته، ثم في آخر كل عام ينتقل إلى الأراضي المقدسة ليحج بيت الله. إنه يجعل من البيت ومن زيارة البيت ستارًا يداري به عورته وسوءته في سوق التجارة مع الناس، يداري بها هذه الأمور الخسيسة، ولكن على من يداريها؟ إن الله كما قلنا لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء. وكبعض الناس الذين يتخذون سورة معينة من سور القرآن الكريم، يقرأونها بصفة دائمة، لماذا؟ لأنها في نظرهم تجلب له الرزق، أو يذكر أورادًا وأذكارًا معينة على أنها تمنع عنه الفقر أو غير ذلك. إن مثل هذا لا يقرأ القرآن ولا يؤدي الأوراد والأذكار إلا من أجل مصالح دنيوية وحدها. فهذا ما لا يليق بمسلم أبدًا. وأمثال هؤلاء إنهم تجار في سوق المنافع وليسوا عابدين لله، وهم أقرب شبهاً بأولئك المنافقين الذين يعبدون الله على حرف.

فهؤلاء كذلك يكون مآلهم الويل والهلاك والثبور، كما قال الله تعالى: (فويل) لمن (للمصلين). من هم هؤلاء؟ **(فويل للمصلين ، الذين هم عن صلاتهم ساهون)** ساهون عن حقيقة الصلاة، وعن فوائدها، وعن حكمتها **(الذين هم يراءون ويمنعون الماعون)**. وإذا كانت صلاتهم على هذا النحو غير مقبولة عند الله لأنها تؤدى رياءً ومفاخرة وسمعة، فكذلك زكاتهم لا يقبلها الله تعالى لأنهم يؤدونها على سبيل الرياء كذلك.

يقول الله تعالى: **(يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى، كالذي ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر)** أي لا يؤمن إيمانًا حقيقيًا. **(فمثله كمثل صفوان عليه تراب، فأصابه واده فتركه صمداً)**. مثل يضربه الله تعالى لقلب الإنسان المنافق. إن قلب المنافق في قسوته وجدبه وعدم الإخلاص فيه، أو عدم الخير من وراءه، يشبهه الله تعالى بالحجر الأملس الناعم. الحجر الأملس الناعم لا يدخر ماءً إذا نزل عليه ولا ينبت كلأ. كذلك قلب المنافق لا يدخر خيرًا ولا ينتج خيرًا. وأيضًا، زيادة في التشبيه والتصوير، الله تعالى يبين أن هذا الحجر الأملس الناعم يكون عليه شيء من التراب يغطيه تغطية كاملة.

إذا نظر الناس إلى هذا الحجر وعليه ذلك التراب، يظن أن هذه أرض خصـــبة وأن من وراءها خير، وأنه من الممكن أن يزرعها فينبت من وراءها نبات طيب. ولكن المطر إذا نزل على هذا الحجر، أزال التراب وبدده، وظهرت حقيقة الحجر جدبًا وصـلابةً، صـخرًا لا ينفع ولا ينبت زرعًا ولا يدخر ماءً ولا غير ذلك. كذلك قلب المنافق يحاول أن يغطيه بشـــيء من هذه الأعمال الصـــالحة، صـــلاةً أو زكاةً أو غير ذلك. يظن الناس أن فيه خيرًا من الأعمال، لكن إذا كشف عن حقيقته تبين أن من وراء ذلك قسوة قلبه وجدبه وأنه لا خير فيه بأي حال من الأحوال. لذلك طلب الله تعالى من النبي صـلى الله عليه وسلم أن يعلن هؤلاء الناس أن نفقاتهم غير مقبولة على الإطلاق: **(قل أنفقوا طوعًا أو كرهًا لن يتقبل منكم إنكم كنتم قومًا فاســـقين)**. قل أنفقوا طوعًا أو كرهًا، أنفقوا عن رضـــا أو أنفقوا عن كراهية. كيف ينفقون عن رضـــا؟ إنهم أحيانًا يقدمون النفقات عن رضـــا، لماذا؟ لأنهم يخدعون بها الناس، وأحيانًا يقدمونها خوفًا وكراهية، لأنهم يتقون بذلك معاقبة المؤمنين لهم. فهم إذًا في الحالين غير مقبول، ســواء قلت صــفقاتهم أو كانت كثيرة، فهذه غير مقبولة. وأما الســبب في رفض قبول هذه الصــدقات، فإن الله تعالى يبين في آية أخرى حيث يقول: **(وما منعهم أن تقبل بها نفقاتهم إلا أنهم كفروا بالله وبرســـوله، ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى، ولا ينفقون إلا وهم كارهون).**

فاتقوا مثل هذه الصفات الخسيسة واتقوا الله الذي إليه تحشرون.

ولنا لقاء آخر إن شاء الله لنكمل الحديث بإذن الله."